

التوبة.. أبرز مظاهر رحمة الله بعباده



«إن من أبرز مظاهر رحمة الله بعباده، أنه فتح لهم الباب واسعاً للتوبة والعودة إليه مهما كبرت ذنوبهم وكثرت، وفي أي وقت وفي أي مكان، هو حاضرٌ لقبول توبتهم بدون أي واسطة، بل هو سبحانه حتى لم يسمح لهم باليأس والقنوط من رحمته، إذ أمر رسوله أن يبلغ الناس: (زَيْدٌ عِبَادِي أَنزَلِي أَنزَالِي الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الحجر/ 49)، (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) (الزمر/ 53).

وقد ورد في حديثٍ قدسيّ: «يا بن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن آدم، لو لقيتني بتراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بترابها مغفرة». ولا تقف حدود كرم الله عند ذلك، بل أعلن سبحانه أنه لا يكتفي بغفران الذنوب، بل هو يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين.

وفي موضوع التوبة، ربما يسأل البعض: ألا يستدعي تشريع التوبة والدعوة إليها، إغراءً للعبد بالمعصية، لكون الإنسان إذا أيقن أن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته رغم اقترافه المعاصي، فسيزيد ذلك من جرأته على ارتكاب المحرمات والانهماك في الذنوب، وسيدفعه ذلك إلى التمادي في المعاصي.. طبعاً الأمر وارد أن يتصرف ضعاف النفوس ومن غرّتهم الدنيا بهذه الطريقة، لكن لعبتهم ستكون مكشوفة، فالأمر مرهونة عند الله بالنيّات وليس بالأقوال، وأذكر هنا ونحن في شهر محرم، نموذجاً لهذه اللّعبة المكشوفة، لُعبة المجرم عمر بن سعد الذي حاول استغلال فكرة التوبة كي يشرعن لنفسه وللآخرين خياره الدّموي، قائلاً يومها بعد أن عرض عليه ابن زياد قيادة الجيش لمقاتلة ابن بنت رسول

أترك ملك الرّي والرّي منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وإنّ إله العرش يغفر زلّتي ولو كنت فيها أظلم الثقلين

يقولون إنّ إله الخالق جنّةٍ ونار وتعذيب وغلّ يدين

فإن صدقوا فيما يقولون فإنّني أتوب إلى الرحمن من سنتين

هنا الحجّة واهية، ولم يكن هذا الطاغية في موقع مَن يتوب إله عليه.

علينا أن ننظر إلى مفهوم التوبة في سياق الرحمة الإلهية، فالغفران والصّفح عن الذنوب لا يحصلان إلاّ لأنّ رحمة إله وسعت كلّ شيء، وهو الذي سبقت رحمته غضبه.

إنّها رحمة خالصة بالعبد، وهي حماية له، على عكس ممّا يتصوّر البعض. الباب المفتوح من إله يعطي أملاً للعاصي كي يتوب ويتراجع. أمّا الباب الموصد، فإنّه يدفع العاصي إلى التمادي.. فكم وكم من الشباب عادوا إلى رحاب إله لاعتقادهم وإيمانهم بأنّ إله يقبل توبتهم مهما عظمت وكبرت!

وهذا ما تُشير إليه الآية: (وَإِذْ يُرِيدُ أَنْ يُتَّوْبَ عَلَيْهِ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقْبِلُوا لِيُحْسِنَ كَلِمَاتِكُمْ وَاللَّيْسُ مِنَ الْغَيْبِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْمِعَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِنَّهُمْ إِذَا عَمُوا لَيَخْلَعُونَ) (النساء/ 27).. إذا التوبة تمثّل علاجاً بقدر ما تمثّل إسقاطاً للماضي.

كيف تتحقّق التوبة؟!

ولكن كيف تتحقّق التوبة؛ هل يكتفي إله من عباده بأن يعلنوا التوبة حتى يحظوا بها؟ نعم، باب التوبة مفتوح لمن يريد، لكنّ لذلك مقدّمات ذاتية.

أولّها الاعتراف وترك المكابرة، بأن يؤكّد المرء لنفسه أنّّه عصى إله، وأنّه أساء في علاقته معه، ثمّ يندم ويستنكر فعلته، ويشعر بأنّه ما كان ينبغي أن يُبادل إله بالعصيان.

وبعدها، عليه أن يصلح ما بدر منه وما اقترفته يده تجاه الخالق وتجاه المخلوق.

وهنا نذكر حديثاً ورد عن الإمام عليّ (ع)، عندما سمع رجلاً بحضرة يتحدّث عن التوبة، فحدّث له الإمام آليات التوبة:

1- الندم على ما مضى.

2- العزم على ترك العود إليه أبداً.

3- أن تؤدّي إلى المخلوقين حقّهم حتى تلقى إله أملكس ليس عليك تبعه.

4- أن تعمد إلى كلِّ فريضة عليك ضيَّعتها فتؤدِّى حقَّها.

5- أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقتَه حلاوة المعصية.

والتوبة حتى تكون شاملةً، لا يبدُّ من أن لا تقف عند حدود الذنوب المتعارفة ممَّا اعتدناه من ترك الواجبات والإتيان بالمحرِّمات، بل تشمل أيضاً التقصير في أداء المسؤوليات العامَّة.. ومن النماذج، ما ورد عن الإمام زين العابدين (ع) في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ طُلِمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْهُ، وَمِنْ مُسِيءٍ أَعْتَذِرَ إِلَيَّ فَلَمْ أَعْذِرْهُ، وَمِنْ ذِي فَاقَةٍ سَأَلَنِي فَلَمْ أَوْثِرْهُ، وَمِنْ حَقٍّ ذِي حَقٍّ لَزِمَنِي لِمُؤْمِنٍ فَلَمْ أُؤَوِّفْهُ، وَمِنْ عَائِبٍ مُؤْمِنٍ ظَهَرَ لِي فَلَمْ أَسْتُرْهُ».

دعاء يُسلِّحك بحساسة مفرطة تجاه الذنوب والمعاصي، ويتجاوز موضوع الفرائض والعبادات إلى المعاملات.

المسارعة إلى التوبة

إنَّنا اليوم أحوج ما نكون إلى هذه المراجعة الدائمة لمسار حياتنا، إذ تواجهنا التحديات من كلِّ حذبٍ وصوب؛ أوَّلها من أنفسنا الأمَّارة بالسوء تستمدُّ قوتها من شيطان خبيث، وتتغذَّى من كلِّ الأجواء التي تحيط بنا وتغرينا بمعصية الله. ولهذا، علينا أن نكون واعين، وأن لا نكفَّ عن استعمال سلاح التوبة الذي منحه الله لنا، فهو سلاح قادر على أن يغلق ملفَّ المعصية ويمحو آثارها. انظروا إلى هذا الحديث الذي يفيض رحمةً، قال أمير المؤمنين (ع): «مَنْ تَابَ.. تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَمْرُ جَوَارِحِهِ أَنْ تَسْتُرَ عَلَيْهِ، وَبِقَاعِ الْأَرْضِ أَنْ تَكْتُمَ عَلَيْهِ، وَأَنْسَيْتِ الْحَفِظَةَ مَا كَانَتْ تَكْتُمُهُ عَلَيْهِ».

فلنفتح قلوبنا على الله بعد أن فتح الله أبوابه لنا، ولنلج التوبة من بابها الواسع، فلا نغلقه على أنفسنا، ولنسارع إليها، فالله وعدَّ الذين يسارعون إليه بالتوبة، فيما لن يقبل أولئك الذين ينتظرون مجيء الموت وتباشيره حتى يتذكَّروا أن يتوبوا، هؤلاء لن يحظوا بذلك، لقد قالها الله تعالى صريحةً: (إِنَّ زَمَّامَاتِ التَّوْبَةِ وَالْوَابِعَاتِ لَأُولَىٰ لِلَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِرِجَاهِ لَئِنْ رُجِعْتُم مِّنْ قَرَابِيبٍ فَلَأُولَٰئِكَ يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِلَالِيهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا كَرِيمًا * وَلَئِيسَتِ التَّوْبَةُ وَالْوَابِعَاتُ لِلَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبِيتُ الْآنَ وَلَا الذَّٰنِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (النساء/ 17-18).

فما دام في العمر بقيَّة، فلنبادر ولنغتنم الفرصة (إِنَّ النَّاسَ لِرِجَابِ اللَّهِ وَابِتِينَ وَبِغَيْبِ اللَّهِ الْمُتَطَاهِرِينَ) (البقرة/ 222).